

عِلْمُ الدِّفَاعِيَّاتِ

المحاضرة ٢٢: إِلَهُ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ فِي مُقَابِلِ إِلَهِ الْفَلَسَفَةِ

أ.ر. سي. سرول

نُتَابِعُ دِرَاسَتَنَا لِعِلْمِ الدِّفَاعِيَّاتِ. فِي الْمَحَاضِرَاتِ السَّابِقَةِ، فَتَشْنَا عَنْ سَبَبِ كَافٍ يُفَسِّرُ الْوَاقِعَ الَّذِي نَرَاهُ. وَأَشْرْنَا إِلَى الْإِحْتِمَالَاتِ الْأَرْبَعَةِ، وَهِيَ أَنَّ الْعَالَمَ وَهُمْ، أَوْ أَنَّهُ جَاءَ بِالْحَلْقِ الدَّائِي، أَوْ أَنَّهُ ذَاتِي الْوُجُودِ، أَوْ خَلَقَهُ فِي الْأَصْلِ شَيْءٌ ذَاتِي الْوُجُودِ. وَحَاوَلْنَا إِثْبَاتَ أَنَّ كِلَا الْإِحْتِمَالَيْنِ الْأَخِيرَيْنِ يَنْطَوِي عَلَى شَيْءٍ أَرَلِيٍّ ذَاتِي الْوُجُودِ. وَفِي الْمَحَاضِرَةِ السَّابِقَةِ، تَنَاوَلْنَا مَسْأَلَةَ مَا إِذَا كَانَ هَذَا الْكَائِنُ الْأَرَلِيُّ ذَاتِي الْوُجُودِ مُتَسَامِيًا. وَحَاوَلْتُ أَنْ أُبَيِّنَ أَنَّهُ حِينَ يَتَحَدَّثُ الْفَلَسَفَةُ وَاللَّاهُوتِيُّونَ عَنِ التَّسَامِي، يَقْصِدُونَ مَا هُوَ أَعْلَى رُتْبَةً وَجُودِيًّا، وَلَيْسَ مَكَانَ الشَّيْءِ.

لَكِنَّا حَتَمْنَا الْمَحَاضِرَةَ بِالسُّؤَالِ الثَّلَاثِي: إِذَا كَانَ هُنَاكَ شَيْءٌ أَرَلِيٌّ وَذَاتِي الْوُجُودِ - سَوَاءً كَانَ الْجُوهَرُ النَّابِضَ لِلْكَوْنِ أَوْ إِلَهُ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ - فَتَحْنُ لَا نَزَالَ بَعِيدِينَ عَنِ الْكَائِنِ الشَّخْصِيِّ الَّذِي نَحْدُهُ فِي الْيَهُودِيَّةِ- الْمَسِيحِيَّةِ، أَيِ إِلَهُ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ. نَسْتَطِيعُ الْقَوْلَ إِنَّ كُلَّ مَا نَجْحَنَا فِي إِثْبَاتِ وُجُودِهِ حَتَّى الْآنَ هُوَ شَيْءٌ أَقْرَبُ إِلَى إِلَهُ الْفَلَسَفَةِ - أَيِ مَفْهُومِ نَظْرِيٍّ عَنِ كَائِنِ أَرَلِيٍّ ذَاتِي الْوُجُودِ. وَيُتْرَكُنَا هَذَا أَمَامَ مُشْكَكَتَيْنِ خَطِيرَتَيْنِ يَجِبُ التَّطَرُّقُ إِلَيْهِمَا بِإِيْجَازٍ. الْأُولَى هِيَ الْعَلَاقَةُ بَيْنَ هَذَا الْمَفْهُومِ الْفَلَسَفِيِّ وَإِلَهُ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ. ثُمَّ الثَّانِيَةُ بِالتَّأَكِيدِ هِيَ: كَيْفَ نَنْتَقِلُ مِنْ كَائِنِ أَرَلِيٍّ ذَاتِي الْوُجُودِ إِلَى إِلَهُ شَخْصِيٍّ؟ وَقَطْعًا، كِلَا السُّؤَالَيْنِ شَدِيدُ الْأَهْمِيَّةِ، وَسَنَبْدَأُ الْآنَ بِالسُّؤَالِ الْأَوَّلِ.

فِي الْكَنِيسَةِ الْأُولَى، تَرْتَلِيَانُ، أَحَدُ آبَاءِ الْكَنِيسَةِ، أُشْهَرَ بِتَصْرِيحِهِ الثَّلَاثِي: "أُؤْمِنُ لِأَنَّ الْأَمْرَ مُنَافٍ لِلْعَقْلِ". حَاوَلَ تَرْتَلِيَانُ هُنَا أَنْ يُبَيِّنَ الْإِخْتِلَافَ الْجَذْرِيَّ بَيْنَ إِلَهُ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ وَإِلَهُ الْفَلَسَفَةِ الْيُونَانِيِّينَ. وَطَرَحَ السُّؤَالِ الْبَلَاغِيَّ الثَّلَاثِي: "مَا لِأُورُشَلِيمَ بِأَيْنَا؟" وَأَجَابَ بِنَفْسِهِ عَنْ هَذَا السُّؤَالِ الْبَلَاغِيَّ قَائِلًا: "مَا مِنْ عِلَاقَةٍ بَيْنَهُمَا". فَمَا مِنْ صِلَةٍ حَقِيقِيَّةٍ بَيْنَ إِلَهُ بَنِي إِسْرَائِيلَ الشَّخْصِيِّ وَهَذَا الْمَفْهُومِ أَوْ الْمَبْدَأِ النَّظْرِيِّ وَالْمُبْهَمِ الْمَوْجُودِ فِي الْفَلَسَفَةِ الْيُونَانِيَّةِ.

هَذَا الْاِعْتِرَاضُ لَمْ يُبْدِهِ تَرْتَلِيَانُ وَحْدَهُ فِي أَوَائِلِ تَارِيخِ الْكَنِيسَةِ، لَكِنَّهُ أُبْدِيَ مُجَدَّدًا وَبِقُوَّةٍ فِي الْقَرْنِ الثَّلَاثِ عَشَرَ، بِظُهُورِ مَدْرَسَةِ اللَّاهُوتِ اللَّيْبَرَالِيَّةِ، وَأَتْبَاعِهَا، مِثْلَ الْمُؤَرِّخِ الْكَنْسِيَّيِّ أَدُولْفِ فُونِ هَارْنَاك، وَاللَّاهُوتِيَّةِ رِيْتَشِيل - أَلْبِرْحْتِ رِيْتَشِيل - الَّتِي قَالَتْ إِنَّهُ مُنْذُ فَتْرَةٍ مُبَكَّرَةٍ مِنْ تَارِيخِ الْكَنِيسَةِ، فَسَدَتْ الْكَنِيسَةُ بِسَبَبِ زَحْفِ الْفَلَسَفَةِ الْيُونَانِيَّةِ إِلَيْهَا. فَحِينَ نَعُودُ إِلَى الْقَرْنِ الرَّابِعِ، إِلَى مَجْمَعِ نِيْقِيَّةِ، حَيْثُ عُرِفَ الثَّلَاوْثُ، وَقِيلَ إِنَّ اللَّهَ وَاحِدٌ فِي الْجُوهَرِ وَثَلَاثَةٌ أَقَانِيمَ، تَلَخَّصَ تَعْرِيفُ الثَّلَاوْثِ وَطَبِيعَتِي الْمَسِيحِ آنَدَاكُ فِي عِبَارَةٍ "هُومُو أُوْسِيُوس"، أَيِ إِنَّ الْمَسِيحَ مُسَاوٍ لِلَّابِ فِي الْجُوهَرِ. هَذِهِ اللَّغَةُ اللَّاهُوتِيَّةُ فِي نِيْقِيَّةِ كَانَتْ مُحْمَلَةً بِمَفَاهِيمَ فِلْسَفِيَّةِ يُونَانِيَّةِ، وَلِذَا كَانَ يَنْبَغِي التَّحَرُّرُ مِنْ

هَيْمَةَ الْفَلَسَفَةِ الْيُونَانِيَّةِ عَلَى فِكْرِ اللَّاهُوتِيِّينَ عَبْرَ الْعُصُورِ. وَكَانَ هَذَا أَحَدَ الْمَفَاهِيمِ الَّتِي قَدَّمَهَا اللَّيْبِرَالْيُونُ فِي الْقَرْنِ التَّاسِعِ عَشَرَ.

تِلْكَ النَّظَرَةُ اللَّيْبِرَالِيَّةُ غَزَتِ الْكَنِيسَةَ الْإِنْجِيلِيَّةَ بِقُوَّةٍ فِي الْقَرْنَيْنِ الْعَشْرَيْنِ وَالْحَادِي وَالْعَشْرِينَ، حَيْثُ نَشَهُدُ هَذَا التَّوَجُّهَ الْجَدِيدَ الرَّافِضَ لِلَّاهُوتِ النَّظَائِيِّ، بِسَبَبِ سَعْيِهِ إِلَى اكْتِسَابِ فَهْمٍ عَقْلَانِيٍّ وَمُتْرَابِطٍ لِلنَّطَاقِ الْكَامِلِ لِلْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ، بَدَلًا مِنْ دِرَاسَةِ نَصِّ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ آيَةً وَجُزْءًا جُزْءًا، وَالسَّمَاحَ لِلْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ بِالتَّحَدُّثِ عَنِ نَفْسِهِ. وَفَحْوَى الْإِتِّهَامِ هُوَ أَنَّ النَّظَائِيَّيْنَ يَفْرِضُونَ نِظَامًا فَلَسَفِيًّا عَلَى الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ، وَيُحَاوِلُونَ إِرْعَامَ كُلِّ شَيْءٍ عَلَى أَنْ يَلَايِمَ هَذَا النَّظَامَ الْمَوْضُوعَ مُسَبِّقًا، وَالْمُسْتَمَدَّ مِنَ الْفَلَسَفَةِ الْيُونَانِيَّةِ.

أَنَا لَاهُوتِيٌّ نِظَائِيٌّ، وَأَعْرِضُ تِلْكَ الْمَلَاخِظَةَ لِأَنِّي أَسْمَعُ هَذَا التَّفَقُّدَ طَوَالَ الْوَقْتِ. فَطَعًا، لَمْ تَكُنْ مُهَمَّةُ اللَّاهُوتِ النَّظَائِيِّ قَطُّ هِيَ فَرَضَ نِظَامٍ غَرِيبٍ عَلَى الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ، ثُمَّ إِرْعَامَ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ عَلَى مَلَاءَمَتِهِ، بَلْ مَا نُحَاوِلُ فِعْلَهُ كِنِظَائِيَّيْنَ هُوَ النَّظَرُ إِلَى النَّطَاقِ الْكَامِلِ لِلْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ، وَمُحَاوَلَةَ اكْتِسَابِ فَهْمٍ مُتْرَابِطٍ، وَاكْتِشَافِ النَّظَامِ الْفِكْرِيِّ الْمَوْجُودِ فِي الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ، وَلَيْسَ فَرَضَ نِظَامٍ عَلَيْهِ. يَفْتَرِضُ هَذَا ضِمْنًا أَنَّ اللَّهَ حِينَ يَتَكَلَّمُ، يَنْطِقُ بِكَلَامٍ مُتْرَابِطٍ، وَيَفْتَرِضُ ضِمْنًا أَنَّ اللَّهَ أَعْطَانَا عُقُولًا لِنَفْهَمَ كَلِمَتَهُ بِطَرِيقَةٍ عَقْلَانِيَّةٍ وَمُتْرَابِطَةٍ، وَلَيْسَ بِطَرِيقَةٍ مُنَافِيَةٍ لِلْعَقْلِ، أَوْ مَفْكَكَةٍ، أَوْ غَيْرِ مَنْطِقِيَّةٍ. غَيْرَ أَنَّ هَذَا الْمَفْهُومَ الْمُنَافِضَ لِلَّاهُوتِ النَّظَائِيِّ الْيَوْمَ مُتَّصِلٌ، فِي حَالَاتٍ وَأَوْسَاطٍ مُتَعَدِّدَةٍ، بِنُفُورِ النَّاسِ مِنَ الْفَلَسَفَةِ الْيُونَانِيَّةِ.

أَحَدُ الْأُمُورِ الَّتِي عَلَيْنَا إِدْرَاكُهَا هُوَ أَنَّهُ بَعْضُ النَّظَرِ عَنِ النَّتَائِجِ، وَسَوَاءٌ أَعْجَبَنَا أَمْ لَا، اخْتَارَ اللَّهُ الرُّوحَ الْقُدُسُ اللَّغَةَ الْيُونَانِيَّةَ لِكِتَابَةِ الْعَهْدِ الْجَدِيدِ. وَمَا دَامَ الْعَهْدُ الْجَدِيدُ كُتِبَ بِاللُّغَةِ الْيُونَانِيَّةِ، سَتَلَازِمًا لُغَةً الْيُونَانِيَّةَ دَائِمًا فِي فَهْمِنَا لِلْإِنْجِيلِ.

هَذَا لَا يَعْنِي أَنْ نُفَسِّرَ يُونَانِيَّةَ الْعَهْدِ الْجَدِيدِ فَقَطُّ فِي ضَوْءِ الْفَلَسَفَةِ الْيُونَانِيَّةِ. يَجِبُ أَلَّا نَفْعَلَ ذَلِكَ. وَيَجِبُ أَنْ تُدْرِكُوا أَنَّهُ مَعَ أَنْ لُغَتُهُ يُونَانِيَّةٌ، لَكِنَّ مَفَاهِيمَهُ جَاءَتْ مِنَ الْعَالَمِ الْعِبْرِيِّ، وَتُقَلَّتْ بِبَسَاطَةٍ بِاسْتِخْدَامِ آدَاءِ اللَّغَةِ الْيُونَانِيَّةِ. وَصَحِيحٌ أَنْ الْكِتَابَةَ الْعِبْرِيَّةَ تَمِيلُ إِلَى أَنْ تَكُونَ تَحْيِيلِيَّةً وَتَصْوِيرِيَّةً بِدَرَجَةٍ أَكْبَرَ، بِمَعْنَى أَنَّهَا تَتَّصِفُ صُورًا أَكْثَرَ مِنْ مَفَاهِيمِ نَظَرِيَّةٍ، لَكِنَّا نَهِينُ الْيَهُودَ إِذَا افْتَرَضْنَا أَنَّ الْيُونَانِيِّينَ كَانُوا مُتْرَابِطِينَ فِي فِكْرِهِمْ، بَيْنَمَا لَمْ يَكُنِ الْعِبْرَانِيُّونَ كَذَلِكَ، أَوْ أَنَّ اللَّهَ أَعْطَى الْيُونَانِيِّينَ عُقُولًا لَمْ يُعْطِهَا لِلْعِبْرَانِيِّينَ. فَالْفِكْرُ الْعِبْرِيُّ لَا يَزَالُ مَنْطِقِيًّا، وَلَا يَزَالُ يَسْعَى إِلَى أَنْ يَكُونَ مُتْرَابِطًا. وَالْعَقْلُ لَهُ أَهْمِيَّةٌ بِاللُّغَةِ فِي الْفَهْمِ الْيَهُودِيِّ لِأُمُورِ اللَّهِ، كَمَا هُوَ الْحَالُ لَدَى الْيُونَانِيِّينَ.

لَكِنْ بَعْدَ قَوْلِنَا ذَلِكَ، لَا زِلْنَا نُوَاجِهُ مُشْكِلَةَ الْفَرْقِ بَيْنَ الْأَفْكَارِ عَنِ اللَّهِ الَّتِي نَجِدُهَا، مَثَلًا، لَدَى أَرِسْطُو، وَالْأَفْكَارِ عَنِ اللَّهِ فِي الْمَسِيحِيَّةِ. عَرَّفَ أَرِسْطُو اللَّهَ بِأَنَّهُ "الْفِكْرَةُ ذَاتِيَّةُ التَّفَكِيرِ"، وَعَرَّفَ اللَّهَ بِأَنَّهُ "الْمَحْرُكُ الَّذِي لَا يَحْرُكُهُ شَيْءٌ"، أَوْ "الْعِلَّةُ الْأُولَى لِكُلِّ شَيْءٍ". لَكِنَّ مَفْهُومَ أَرِسْطُو عَنِ اللَّهِ هُوَ أَنَّهُ لَا يُخْلَقُ بِفِعْلِ إِرَادِيٍّ، بَلْ يُخْلَقُ، إِنْ جَاَزَ التَّعْبِيرُ، بِدَافِعِ الصَّرُورَةِ. وَهُوَ مُتَبَاعِدٌ تَمَامًا وَغَيْرُ شَخْصِيٍّ. فَهُوَ يَظَلُّ مُنْفَصِلًا عَنِ الْعَالَمِ الَّذِي تَكُونُ مِنْ كَيْنُونَتِهِ. لَكِنْ فِي الْمَسِيحِيَّةِ، الْإِلَهُ الَّذِي نَقْرَأُ عَنْهُ فِي الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ، مُنْذُ الصَّفْحَةِ الْأُولَى - بَلْ وَالآيَةِ الْأُولَى - يَعْمَلُ لِخَلْقِ كُلِّ مَا هُوَ مَوْجُودٌ. وَيَعْمَلُ بِطَرِيقَةٍ مَنْطِقِيَّةٍ وَمُتَعَمِّدَةٍ لِإِيجَادِ الْأَشْيَاءِ. وَكُلُّ مَا يَخْلُقُهُ، هُوَ يَحْفَظُهُ، وَيَتَعَهَّدُهُ. وَالْكِتَابُ الْمُقَدَّسُ هُوَ قِصَّةُ الْخَلْقِ وَالْفِدَاءِ. فَاللَّهُ مُهْتَمٌّ كَثِيرًا بِشُؤْنِ التَّارِيخِ، وَبِالْعَمَلِ عَلَى إِدَارَةِ الْكُونِ الَّذِي يَخْلُقُهُ. إِذَنْ، مِنْ الْوَاضِحِ أَنَّهُ تُوُجِدُ فُرُوقٌ شَاسِعَةٌ فِي مَفْهُومِ أَرِسْطُو، مَثَلًا، عَنِ اللَّهِ، وَمَفْهُومِ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ عَنِ اللَّهِ.

كَذَلِكَ، نَجِدُ فِي الْفَلَسَفَةِ الْيُونَانِيَّةِ مَفْهُومَ اللُّوجُوسِ، أَوْ الْكَلِمَةِ، أَوْ الْمُنْطِقِ، الَّذِي هُوَ فِي الْفَلَسَفَةِ الْيُونَانِيَّةِ بِمَثَابَةِ فِكْرَةِ مُجَرَّدَةٍ صَّرُورِيَّةٍ لِإِضْفَاءِ نِظَامٍ وَانْسِجَامٍ عَلَى الْعَالَمِ. أَمَّا فِي الْمَسِيحِيَّةِ الْكِتَابِيَّةِ، فَاللُّوجُوسُ هُوَ كَلِمَةُ اللَّهِ الْمُتَجَسِّدِ. وَهُوَ شَخْصٌ. وَهَذَا يَخْتَلِفُ جَدْرِيًّا عَمَّا قَدْ نَجِدُهُ فِي الرَّوَافِيَّةِ، أَوْ فِي فِلْسَفَةِ هِرْفَلِيطُسَ، الَّذِينَ اسْتَحْدَمَ كِلَاهُمَا مَفْهُومَ اللُّوجُوسِ فِي فِلْسَفَتِهِ الْيُونَانِيَّةِ.

لَكِنْ مَا أَرِيدُ أَنْ نَفْهَمَهُ حِينَ نَسْمَعُ الْمَسِيحِيِّينَ يَعْتَرِضُونَ عَلَى إِثْبَاتِ عِلْمِ الدَّفَاعِيَّاتِ لَوْجُودِ كَائِنٍ أَرِيٍّ ذَاتِي الْوُجُودِ، قَائِلِينَ إِنَّ ذَلِكَ فَقَطْ يُوَصِّلُنَا إِلَى عِلَّةٍ أُولَى، وَإِلَى كَائِنٍ أَرِيٍّ ذَاتِي الْوُجُودِ، وَيَقْتَادُنَا فَقَطْ إِلَى بَابِ "الَلِّيْسِيُومِ" - الْمَدْرَسَةِ الَّتِي أَسَّسَهَا أَرِسْطُو. فَكُلُّ مَا أَثْبَتْنَا وُجُودَهُ هُوَ إِلَهُ أَرِسْطُو، وَلَيْسَ إِلَهُ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ. وَلِذَلِكَ، يَرْفُضُ النَّاسُ مِنْهَجِيَّةَ عِلْمِ الدَّفَاعِيَّاتِ بِأَكْمَلِهَا، الَّتِي اجْتَهَدْتُ لِعَرْضِهَا مُنْذُ بَدَايَةِ هَذِهِ السَّلْسِلَةِ. وَهَذَا أَذْكَرُ النَّاسِ بِأَنَّ أَحَدَ الْمَبَادِيءِ الْأُولَى فِي الْأَلْهُوتِ النَّظَائِيٍّ، حِينَ نَتَحَدَّثُ عَنْ عَقِيدَةِ اللَّهِ، هُوَ عَقِيدَةُ عُمُوضِ اللَّهِ، وَمَعْنَاهَا أَنْ لَا أَحَدٌ سَيَتَمَكَّنُ يَوْمًا مِنْ أَنْ يَعْرِفَ اللَّهَ أَوْ يُدْرِكُهُ بِشَكْلِ كَامِلٍ. فَاللَّهُ غَيْرُ مَحْدُودٍ فِي سُمُوهِ. وَحَتَّى فِي السَّمَاءِ، لَنْ نَتَمَعَّ بِبَصِيرَةٍ غَيْرِ مَحْدُودَةٍ نَقْدِرُ بِهَا أَنْ نُدْرِكَهُ. فَتَحْنُ مَخْلُوقَاتٌ مَحْدُودَةٌ. وَدِسَبَبِ طَبِيعَتِنَا الْمَخْلُوقَةِ، إِذْرَاكُنَا لِلَّهِ مَحْدُودٌ.

حِينَ نَقُولُ إِنَّ اللَّهَ غَامِضٌ، لَسْنَا نَقْصِدُ بِذَلِكَ أَنَّنَا لَا نَعْرِفُ اللَّهَ، بَلْ مَعْنَى هَذَا بِبَسَاطَةٍ أَنَّنَا لَا نَعْرِفُ اللَّهَ بِشَكْلِ كَامِلٍ وَشَامِلٍ. يَقُولُ الَّذِينَ يَعْتَرِضُونَ عَلَى مُحَاوَلَتِنَا إِثْبَاتِ وُجُودِ كَائِنٍ أَرِيٍّ ذَاتِي الْوُجُودِ إِنَّ هَذَا فَقَطْ يَقْتَادُنَا إِلَى الْعِلَّةِ الْأُولَى، وَإِلَى إِلَهُ الْفَلَسَافَةِ، وَلَيْسَ إِلَى إِلَهُ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ. وَبِالتَّالِي، فَالْمَنْهَجِيَّةُ خَاطِئَةٌ، وَالِاسْتِنْتَاجُ الَّذِي نَسْتَخْلِصُهُ خَاطِئٌ، لِأَنَّهُ لَا يُمَثِّلُ الصُّورَةَ كَامِلَةً، لَكِنَّهُ مُجَرَّدُ صُورَةٍ جُزْئِيَّةٍ عَنِ الْإِلَهِ الْحَقِيقِيِّ.

وَالسُّؤَالُ الْآنَ هُوَ: هَلْ يَجِبُ أَنْ نَعْرِفَ اللَّهَ مَعْرِفَةً كَامِلَةً حَتَّى نَعْرِفَهُ مَعْرِفَةً حَقِيقِيَّةً؟ أَعُودُ بِهَذَا إِلَى الْمُبْدَأِ الْأَوَّلِ فِي لَاهُوتِنَا. فَلَوْ كَانَ يَنْبَغِي أَنْ نَكْتَسِبَ صُورَةَ شَامِلَةً وَكَامِلَةً عَنِ اللَّهِ، حَتَّى نَفْهَمَهُ فَهْمًا حَقِيقِيًّا، فَهَذَا سَيَعْنِي فَقَطْ -

إِذَا كَانَتْ هَذِهِ الْعَقِيدَةُ صَحِيحَةً - أَنَّنَا لَا نَعْرِفُ اللَّهَ مَعْرِفَةً حَقِيقِيَّةً، لِأَنَّنا حَتْمًا لَا نَعْرِفُهُ مَعْرِفَةً شَامِلَةً. بِتَعْبِيرٍ آخَرَ، أَقْصَدُ بِذَلِكَ أَنَّهُ حَتَّى وَإِنْ كَانَتْ مَعْرِفَتُنَا بِاللَّهِ جُزْئِيَّةً، فَهَذَا لَا يَعْنِي أَنَّهَا غَيْرُ صَحِيحَةٍ. فَهِيَ صَحِيحَةٌ بِحَسَبِ مِقْدَارِهَا. وَمَعَ أَنَّنَا نَقْرُ بِأَنَّ مَا تَوَصَّلْنَا إِلَيْهِ حَتَّى الْآنَ بِتَفْكِيرِنَا الْمُنْطِقِيِّ فَقَطْ يُنْبِتُ وُجُودَ كَائِنِ أَرْزِيٍّ ذَاتِي الْوُجُودِ، لَكِنَّ هَذَا قَطْعًا جُزْءٌ مِمَّا يُعْلِنُهُ الْكِتَابُ الْمُقَدَّسُ بِالْفِعْلِ عَنِ طَبِيعَةِ اللَّهِ. لِأَنَّ أَحَدَ الْأُمُورِ الَّتِي يُعْلِنُهَا الْكِتَابُ الْمُقَدَّسُ عَنِ طَبِيعَةِ اللَّهِ هُوَ بِالتَّأَكِيدِ أَنَّهُ أَرْزِيٌّ، وَذَاتِي الْوُجُودِ، وَأَنَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ. حَتَّى هُنَا، يَقُولُ أَرْسُطُو "نَعَمْ وَآمِينَ". هَلْ أَرْسُطُو مُحْطَى؟ كَلَّا. فَمُؤَافَقَةٌ فَيَلْسُوفٍ وَثَنِيٌّ عَلَى ضَرْوَرَةِ وُجُودِ كَائِنِ أَرْزِيٍّ ذَاتِي الْوُجُودِ لَا يُكَدِّبُ التَّصْرِيحَ الْمَسِيحِيَّ، بَلْ يَتَّفِقُ مَعَهُ. وَنَقُولُ: "أَجَلْ، نَتَّفِقُ مَعَ أَرْسُطُو عَلَى حَنْمِيَّةِ وُجُودِ عِلَّةٍ أُولَى، وَتِلْكَ الْعِلَّةُ الْأُولَى يَجِبُ أَنْ تَكُونَ ذَاتِيَّةَ الْوُجُودِ، وَيَجِبُ أَنْ تَكُونَ حَقِيقِيَّةً تَمَامًا، وَيَجِبُ أَنْ تَكُونَ كَائِنًا بَحْتًا، وَيَجِبُ أَنْ تَكُونَ أَرْزِيَّةً". وَهُنَا أَقُولُ: "شُكْرًا جَزِيلًا يَا أَرْسُطُو. أَنْتِ تُوَافِقُنَا الرَّأْيَ، وَنَحْنُ تُوَافِقُكَ الرَّأْيَ حَوْلَ هَذِهِ الْفِكْرَةِ الْأَسَاسِيَّةِ". هَذَا مُجَرَّدُ جُزْءٍ مِنْ مَعْرِفَتِنَا بِاللَّهِ، لَكِنَّهُ جُزْءٌ حَيَوِيٌّ لِأَنَّهُ، أَيُّهَا السَّادَّةُ، هَذَا هُوَ تَحْدِيدًا الْجَانِبُ مِنَ الْمَفْهُومِ الْمَسِيحِيِّ عَنِ اللَّهِ الَّذِي يَتَعَرَّضُ لِلْهُجُومِ الْمُسْتَمِرِّ مِنْ نُظْمِ الْفِكْرِ الْإِلْهَادِيَّةِ.

فَالْمُلْحِدُونَ يَهَاجِمُونَ إِيمَانَ الْمَسِيحِيَّةِ بِالْخَلْقِ، وَبِوُجُودِ كَائِنِ مُتَسَامٍ، وَذَاتِي الْوُجُودِ، وَأَرْزِيٍّ. وَلِذَلِكَ أَرَى أَنَّهُ مِنَ الْمُهَمِّ جِدًّا أَنْ نُؤَكِّدَ أَنَّهُ لَيْسَ الْإِيمَانُ وَحْدَهُ، بَلْ الْمُنْطِقُ أَيْضًا، يَسْتَدْعِي الضَّرُورَةَ الْمُنْطِقِيَّةَ لِوُجُودِ كَائِنِ أَرْزِيٍّ ذَاتِي الْوُجُودِ، وَذَلِكَ حَتَّى يَخْرُجَ الْمَسِيحِيُّ مِنَ الْمَعْرَكَةِ حَوْلَ عَقِيدَةِ اللَّهِ غَالِبًا، بَدَلًا مِنْ تَحْلِيهِ عَنِ الْكَثِيرِ مِنَ الْحَقَائِقِ.

لَكِنَّ أَقُولُ مُجَدِّدًا، وَبِاخْتِصَارٍ، إِنَّنَا نَقْرُ بِأَنَّ إِثْبَاتَ وُجُودِ كَائِنِ أَرْزِيٍّ وَذَاتِي الْوُجُودِ لَا يَقْتَادُنَا إِلَى فَهْمٍ كَامِلٍ لِلَّهِ، أَوْ حَتَّى إِلَى فَهْمٍ مُسَاوٍ لِمَا يَقْدَمُهُ الْكِتَابُ الْمُقَدَّسُ، لَكِنَّهُ فَقَطْ يُؤَيِّدُ الْجَانِبَ أَوْ الْوَجْهَ الْأَهَمَّ لِعَقِيدَةِ اللَّهِ الَّذِي يُعْلِنُهُ الْكِتَابُ الْمُقَدَّسُ بِالْفِعْلِ. فَالْكِتَابُ الْمُقَدَّسُ، وَلَيْسَ فَقَطْ أَرْسُطُو، يُعْلِنُ أَنَّ اللَّهَ ذَاتِي الْوُجُودِ وَأَرْزِيٌّ. إِذَنْ، لَسْنَا نَلْعَبُ هُنَا مُبَارِيَاتٍ فِلْسَافِيَّةً، لَكِنَّنا نُدَافِعُ عَنِ جَوَانِبِ حَيَوِيَّةٍ مِنْ عَقِيدَةِ اللَّهِ الْكِتَابِيَّةِ.

لَكِنَّ مُجَدِّدًا، السُّؤَالُ هُوَ: كَيْفَ نَنْتَقِلُ مِنْ هَذَا الشَّيْءِ الْأَرْزِيِّ ذَاتِي الْوُجُودِ إِلَى وُجُودِ إِلَهٍ شَخْصِيٍّ؟ يَتَطَلَّبُ ذَلِكَ بَحْتًا أَشَدَّ تَعْقِيدًا وَصُعُوبَةً بَعْضَ الشَّيْءِ. ذَكَرْتُ سَابِقًا أَنَّ وَاحِدَةً مِنْ أَشْهُرِ الْحُجَجِ الْمُؤَيَّدَةِ لِوُجُودِ اللَّهِ تُعْرَفُ بِالْحُجَّةِ الْعَائِيَّةِ. وَاسْمُهَا (teleological) مُشْتَقٌّ مِنَ الْكَلِمَةِ الْيُونَانِيَّةِ "telos"، الَّتِي مَعْنَاهَا "غَايَةٌ، أَوْ غَرَضٌ، أَوْ هَدَفٌ". وَتُسَمَّى الْحُجَّةُ الْعَائِيَّةُ أَحْيَانًا بِالْحُجَّةِ الْمُسْتَوْحَاةِ مِنَ التَّصْمِيمِ.

تَدَكَّرُوا أَنَّ اثْنَيْنِ مِنْ أَبْرَزِ الشُّكُوكِيِّينَ فِي التَّارِيخِ بِشَأْنِ الْحُجَجِ التَّقْلِيدِيَّةِ لِإِثْبَاتِ وُجُودِ اللَّهِ هُمَا إِيْمَانُوِيلْ كَانِظْ، وَدَافِيدْ هِيُومْ. وَمَعَ ذَلِكَ، شَعَرَ كِلَاهُمَا بِأَنَّ أَقْوَى حُجَّةٍ تُؤَيِّدُ وُجُودَ اللَّهِ هِيَ الْحُجَّةُ الْعَائِيَّةُ. قَالَ كَانِظْ نَفْسُهُ إِنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ تَجَاهُلَ أَمْرَيْنِ: السَّمَاءَ بِالْأَعْلَى الْمَلِيئَةَ بِالنُّجُومِ، وَالْقَانُونَ الْأَخْلَاقِيَّ فِي الدَّخْلِ. فَلَمْ يَكُنْ كَانِظْ مُجَرَّدَ

فَيَسُوفُ، بَلْ كَانَ عَالِمًا أَيْضًا. وَقَدْ أَفْحَمْتُهُ الْبَرَاهِينُ الدَّامِعَةُ عَلَى وُجُودِ تَصْمِيمٍ فِي عَالَمِ الطَّبِيعَةِ. وَمِنَ الصَّعْبِ نَسْبُ تَصْمِيمٍ إِلَى الطَّبِيعَةِ دُونَ افْتِرَاضِ وُجُودِ مُصَمِّمٍ. فَهَلْ يُمَكِّنُ أَنْ يُوجَدَ تَصْمِيمٌ غَيْرُ مُتَعَمِّدٍ؟ هَذَا هُوَ السُّؤَالُ.

تَذَكَّرُوا أَنَّنَا تَحَدَّثْنَا عَنِ الْمَثَلِ الَّذِي قَدَّمَهُ أَنْطُونِي فُلُو لِمُسْتَكْشِفِينَ فِي الْأَدْغَالِ، كَانُوا يَجْتَازُونَ أَرْضًا مَجْهُولَةً، وَيَسْتَعِينُونَ بِمَنَاجِلَ لِيَشْفُقُوا طَرِيقَهُمْ عَبْرَ تِلْكَ الْعَابَةِ الْإِسْتَوَائِيَّةِ الْكَثِيفَةِ. ثُمَّ وَصَلُوا، فِي مُنْتَصَفِ تِلْكَ الْعَابَةِ، إِلَى حَدِيقَةٍ جَمِيلَةٍ مُشَدَّبَةٍ، مَحْرُوثَةٍ بِعِنَايَةٍ، وَكُلُّ شَيْءٍ فِيهَا مُرْتَّبٌ تَمَامًا، دُونَ وُجُودِ أَيِّ عُشْبَةٍ ضَارَّةٍ بَيْنَ الْمَزْرُوعَاتِ. فَقَالُوا: "لَا بُدَّ أَنْ بُسْتَانِيًّا مَوْجُودٌ فِي الْأَنْحَاءِ". فَأَخَذُوا يَبْحَثُونَ حَوْلَهُمْ عَنِ بُسْتَانِيٍّ، فَلَمْ يَجِدُوا. وَابْتَدَأُوا يُفَكِّرُونَ فِي أَنَّ الْبُسْتَانِيَّ رَبِّمَا كَانَ غَيْرَ مَنْظُورٍ أَوْ غَيْرَ مَادِّيٍّ، وَمَا إِلَى ذَلِكَ. وَأَخِيرًا، فِي خِتَامِ مَثَلِ فُلُو، قَالَ إِنَّنَا تَتَجَاهَلُ الْمَنْطِقَ، وَتَتَمَلَّصُ مِنَ الْحَقِيقَةِ، حِينَ نَصِفُ اللَّهَ بِأَنَّهُ غَيْرُ مَنْظُورٍ وَغَيْرُ مَادِّيٍّ، وَبِأَنَّ لَا أَحَدَ يَرَاهُ الْبَتَّةَ، إِلَى آخِرِهِ. وَقَالَ: "مَا الْفَرْقُ إِذَنْ بَيْنَ هَذَا الْإِلَهِ وَعَدَمِ وُجُودِ إِلَهٍ عَلَى الْإِطْلَاقِ؟" وَالْجَوَابُ الْأَكِيدُ هُوَ الْحَدِيقَةُ. فَإِنَّا لَمْ نَفْسِرْ بَعْدَ الْوُجُودِ الْحَقِيقِيِّ لِتَصْمِيمٍ فِي الْحَدِيقَةِ.

هَذِهِ هِيَ الْفِكْرَةُ الَّتِي لَمْ يَسْتَطِعْ فَلَاسِفَةُ التَّنْوِيرِ التَّمَلُّصُ مِنْهَا، فَتَحَوَّلُوا مِنَ الْإِيمَانِ الْمَسِيحِيِّ بِوُجُودِ اللَّهِ إِلَى الْفَلَسَفَةِ الرَّبُوبِيَّةِ. فَقَدْ عَجَزُوا عَنِ تَجَنُّبِ دَلَالَاتِ وُجُودِ تَصْمِيمٍ، وَقَالُوا إِنَّ الْعَالَمَ يَعْمَلُ كَسَاعَةِ مِثَالِيَّةِ الصُّنْعِ، بِثُرُوسِهَا وَآلِيَّاتِهَا الدَّاخِلِيَّةِ. وَلَا يُمَكِّنُ لِأَحَدٍ أَنْ يَرَى سَاعَةً دُونَ أَنْ يَفْتَرِضَ وُجُودَ مُصَمِّمٍ أَوْ صَانِعِ سَاعَاتٍ. فَكَّرُوا مَعِيَ كَيْفَ تَعْمَلُ عَيْنُ الْإِنْسَانِ. فَهِيَ أَشَدُّ تَعْقِيدًا مِنْ آيَةِ سَاعَةِ مَصْنُوعَةٍ. وَافْتِرَاضُ هَذَا التَّنَوُّعِ مِنَ التَّصْمِيمِ وَالْقَصْدِ الذَّكِيِّ دُونَ اسْتِنْتِاجِ وُجُودِ مُصَمِّمٍ ذَكِيٍّ هُوَ تَهَرُّبٌ مِنَ الْحَقَائِقِ. وَبِالْعَوْدَةِ إِلَى أَرِسْطُو، قَالَ أَرِسْطُو إِنَّ أَهَمَّ صِفَةَ لِلشَّخْصِيَّةِ هِيَ التَّعَمُّدُ، أَوْ مَا دُعِيَ فِي الْفَلَسَفَةِ الْأَحَدِثِ - أَيِ فِلْسَفَةِ الْقَرْنِ الثَّاسِعِ عَشَرَ - "التَّعَمُّدُ الشَّخْصَانِيَّ". وَالسُّلُوكُ الْمُتَعَمِّدُ يَسْتَلْزِمُ عَقْلًا، وَقُدْرَةً عَلَى اخْتِيَارِ مَا يُحَظِّطُ لَهُ الْعَقْلُ. قَالَ أَرِسْطُو إِنَّ الشَّخْصِيَّةَ تَسْتَلْزِمُ تَعَمُّدًا، وَالتَّعَمُّدُ يُفْتَرِضُ ضِمْنَا وُجُودَ شَخْصِيَّةٍ، وَجَوْهَرَ التَّعَمُّدِ يَكُونُ فِي الْعَقْلِ وَالْإِرَادَةِ.

لَيْسَ لِلْقُوَى غَيْرِ الشَّخْصِيَّةِ عَقْلٌ أَوْ إِرَادَةٌ. وَلَا يُمَكِّنُهَا تَصْمِيمٌ شَيْءٍ. وَأَعْتَقِدُ أَنَّنَا حِينَ نَحَاوُلُ اخْتِرَالَ اللَّهِ إِلَى مُجَرَّدِ قُوَى مُجَرَّدَةٍ، غَيْرِ شَخْصِيَّةٍ، وَغَيْرِ ذَكِيَّةٍ، وَبِلا إِرَادَةٍ، فَإِنَّا نَتَهَرَّبُ مِنْ دِينُونَةِ ذَلِكَ الْكَائِنِ الذَّكِيِّ الَّذِي يَعْمَلُ وَفَقًا لِتَصْمِيمٍ. فَهَذِهِ وَسَيْلَتُنَا لِلتَّهَرُّبِ مِنَ الْإِدَانَةِ الْأَخْلَاقِيَّةِ. سَنَنْتَرِقُ إِلَى ذَلِكَ لَاحِقًا. لَكِنْ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يُوجَدَ قَصْدٌ تَصَادُفِيٌّ، أَوْ ذَكَاءٌ غَيْرُ ذَكِيٍّ. فَانْعِدَامُ الشَّخْصِيَّةِ لَا يُثْمِرُ شَخْصِيَّةً، لِأَنَّ هَذَا سَيَكُونُ تَعَمُّدًا غَيْرُ مُتَعَمِّدٍ. وَلَا يُمَكِّنُ أَنْ يُوجَدَ تَعَمُّدٌ غَيْرُ مُتَعَمِّدٍ. هَذَا هُوَ الْمَفْهُومُ الْمَوْجُودُ فِي الْخَلْقِ الدَّائِيَّ. فَالتَّعَمُّدُ غَيْرُ الْمُتَعَمِّدِ مُنَافٍ لِلْعَقْلِ. إِذَنْ، إِذَا نَظَرْنَا إِلَى التَّصْمِيمِ، وَإِلَى تِلْكَ الْأَشْيَاءِ عَنْ كَثَبٍ، سَنَرَى أَنَّهُ إِذَا كَانَ هُنَاكَ تَصْمِيمٌ فِي الْكُونِ، فَإِنَّ ذَلِكَ الشَّيْءَ الْأَزَلِيَّ دَائِيَّ الْوُجُودِ، الْمَسْئُولَ عَنْ تَكْوِينِ الْكُونِ الَّذِي نَرَاهُ، يَجِبُ أَنْ يَكُونَ كَائِنًا دَائِيَّ الْوُجُودِ، وَأَزَلِيًّا، وَذَكِيًّا. وَإِذَا كَانَ ذَكِيًّا،

فَهُوَ شَخْصٌ. وَإِذَا كَانَ شَخْصًا، نَكُونُ قَدِ ابْتَعَدْنَا عَنِ الْحَقَائِقِ الْمَجْرَدَةِ، وَهَبَطْنَا فَوْقَ صَفَحَاتِ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ مُبَاشَرَةً.

الدُّكْتُورُ أَرْ. سِي. سِنُورُول هُوَ مُؤَسَّسُ هَيْئَةِ خِدْمَاتِ لِيْجُونِيْر، وَكَانَ أَحَدَ رُعَاةِ كَنِيسَةِ الْقِدِّيسِ أَنْدْرُو (St. Andrews Chapel) فِي مَدِينَةِ سَانْفُورْد بِوَلَايَةِ فُلُورِيدَا، كَمَا كَانَ أَوَّلَ رَئِيسِ لِكَلِّيَّةِ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ لِلِإِصْلَاحِ (Reformation Bible College) وَهُوَ مُؤَلِّفُ أَكْثَرِ مِنْ مِائَةِ كِتَابٍ، بِمَا فِي ذَلِكَ "كُنَّا لَاهَوْتِيُون" و"أَدَهْسِنِي الْأَلَم".